الاندلس

— ٣ —

« عبرة وذكرى »

قسمنا الحكم الأموي الى ثلاثة أدوار : (١) الولاية (٢) الامارة (٣) الخلافة . وتكلمنا عن الدورين الاولين ، ونحن الآن متكلمون عن الدور الثالث وهو الخلافة . نبدأ بالاحداث السياسية ، ثم نثني بالاعمال العمرانية ، على ماأخذنا به نفسنا من قبل .

الحالة السياسية قبل عبدالرحمن الناصر : قلنا : ان الأمويين كان قد التاث امرهم بعد عبد الرحمن الاوسط ، فدب الضعف والدسائس الى جهاز الدولة ، واخذت الفتن والفوضى بخناقها ، وجعل اعداء الدولة الاموية يرقبون زوالها في الغرب ، بين حين وحين ، كما زالت من قبل في الشرق .

وبينا العرب وامرهم عليهم غُمَّة : يزدادون فُرقة فيزدادون ضعفاً ، والاسبان : يزدادون وحدةً فيزدادون قوةً ، اذ بعبد الرحمن بن محمد المقتول ابن عبدالله ، يبايع له بالامارة بعد جده عبد الله .

ومحمد هذا ، كان قتله اخوه المطرّف بن عبدالله بعد ان أبصر عبدالرحمن النور بيوم واحد . فنشأ عبدالرحمن في حجر جده عبد الله . وبويع له بالامارة وهو شاب في الثالثة والعشرين من عمره . وبالحضرة اعمامه واعمام ابيه ، فلم يختلفوا فيه .

وما ادري كيف اتفقوا على مثله فتى ، في زمان كان فيه الاب يقتل ابنه في اقل من الامارة . ولعل قومه رأوا ما كانت عليه دولتهم من القلق والاضطراب ، وشعروا بما كان يهددها من زوال ، وآنسوا بعبد الرحمن مضاء العزيمة والحزم ، فجمعهم اليه ولو الى حين ، خوفهم من سوء العقبى .

واذا كان الامر قد آتاه من هذه الوجهة ، فقد قامت في وجهه من وجهات أخرى مصاعب جمة ، لا نقل شيئاً عما كان لقيه جده عبد الرحمن الداخل . خوارجُ متوثبة عليه في الداخل ، والاعداء متربصة به الدوائر في الخارج ، الاسبان من الشمال ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والفاطميون من الجنوب . فكان عليه ان يضرب بسيف جده الداخل ، فيقاتل اهل البلاد من قومه ، ومن الاسبان ، وان يقاتل الفاطميين بدلاً من العباسيين الذين قاتلهم جده .

سياسته : رأى عبد الرحمن ان سياسة الضعف والتردد التي سار عليها الامراء المتأخرون من بني أمية ، قد أدت الى تفكك عرى الوحدة القومية ، فكان من وراء ذلك جماح العرب ، وطماح الاسبان ، فأخذ من امره بالحزم والشدة . غير انه حزم كانت تتقطع له نياط القلوب ، وشدة كانت تقشعر لهولها الابدان ، في كثير من الاحيان .

اظهاره الخلافة : ومن حزمه انه كان يهتبل الفرص فلا يتركها تمر مر السحاب . بلغه سنة ٣١٧ ان المقتدر بالله العباسي قد قتله مولاه مونس المظفر ، فبادر عبد الرحمن فأعلن الخلافة واتخذ لنفسه القابها : تسمى بامير المؤمنين ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وضربت السكة باسمه ، وخطب له على منابر البلاد ، وبعث الى الجهات بمنشور جاء فيه :

« اما بعد ، فانا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه . للذي فضلنا به ، وأظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، وسير على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه . وللذي اشاد في الآفاق من ذكرنا ، وعلو امرنا ، واعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعان من انحرافهم الينا ، واستبشارهم بدولتنا . والحمد لله ولي الانعام بما أنعم به . واهل الفضل بما تفضل علينا فيه .

وقد رأينا ان تكون الدعوة لنا باميرالمؤمنين . وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك . اذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لايستحقه ، وعلمنا ان التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك ، حق اضعناه . واسم ثابت اسقطناه . فأمر الخطيب بموضعك ان يقول به . وأجر مخاطبتك لنا عليه ، ان شاء الله . والله المستعان . »

ولسنا نقف عند ما قاله مؤرخونا من ان قتل الخليفة العباسي هو الذي دعاه الى اعلان الخلافة ، فلقد كان ذلك سبباً من الاسباب لا السبب كله ، والا فقد قتل قبل المقتدر غير واحد من الخلفاء العباسيين ، فما تحرك أموي في الغرب بدعوة ، ولا طالب من الخلافة بحق . ذلك ان القوم كانوا يعدون الخلافة الصحيحة خلافة المشرق ، فكان كل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عز يز منهم يرمح بابصاره اليها ، وكانوا يرون في امارة الاندلس مدرجة الى العودة الى الملك القديم . وحسبنا على ذلك ان عبدالرحمن الداخل، خرج من الشام طريداً مشرداً ، لا ملك له فيه ، فأسس في الغرب الملك الذي رأينا غير انه ما برح يتشوق الى الشام ويعد نفسه في الاندلس غريباً .

وقد هم غير واحد من أمية بغزو المشرق والعودة اليه ، لولا ان شغلهم من الحروب والفتن ماذكرت بعضه ، فلما يئس عبد الرحمن الناصر من امر المشرق ، وقد توسطت بينه وبين خلافتها خلافة جديدة ، هي الخلافة الفاطمية بالمغرب ، رأى ان يكتفي بالاندلس ، يعلن فيها خلافته ، ويمشي بها رجوعاً الى ناحية المشرق على قدر ما يمتد معه الفتح .

اذا لم تستطع امراً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

ونحن بعد ، نجمل اعلان هذه الخلافة في أسباب خمسة :

١ — مكانة عبد الرحمن الناصر وطموحه

٢ — وقوف آماله عن غزو المشرق

٣ — قيام الخلافة الفاطمية وتوسطها بينه وبين الخلافة العباسية جرثومة الخلافة ، وانشغاله عن هذه بتلك .

٤ — ضعف الخلافة العباسية والتياث امرها .

٥ — قتل المقتدر العباسي

والسبب الخامس هو حجة ظاهرة انتحلها عبد الرحمن يتذرع بها ، وهو انه لم ينتزع الخلافة من صاحبها انتزاعاً ، وان كانت حقه ، ولكنه وجدها عاطلة تائهة فآواها وحلاها . أسلوب من أساليب الحيل السياسية من قبل ومن بعد .

حروب عبد الرحمن وقمعه للفتن : نهض عبدالرحمن الى الحرب يباشرها بنفسه ، فقاتل الثوار وهم كثر ، في غير موطن قتالاً متواصلاً ، وكان أشدهم عليه بنو حفصون ، واولهم عمر . قال ابن خلدون : وهو اول ثائر كان بالاندلس ، وهو الذي افتتح الخلاف بها ، وفارق الجماعة ايام محمد بن عبد الرحمن في سنة ٢٧٠ . خرج بجبل يشتر ( )

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من ناحية رَيْنَة ومالِقة ، وانضم اليه الكثير من جند الاندلس . وابتنى قلعته المعروفة هناك . واستولى على غرب الاندلس الى رُندة ، وعلى السواحل من الشيجة الى البيرة .

ومهما يكن من النظر في قول ابن خلدون ، من ان ابن حفصون هو اول ثائر ، فان الرجل كان قد مر عليه وهو ثائر عشرات من السنين ، قاتل فيها اربعة امراء من الأُمويين : محمداً والمنذر وعبدالله وعبدالرحمن ، وراسل ابن الاغلب بافريقية ، واظهر دعوة بني العباس ، وخالص ملك الجلالقة ، وأعلن دعوة عبيد الله المهدي . فكان ابن حفصون هذا رجلاً قد عشش الخلاف في رأسه ، وفرّخت الفتنة في قلبه ، فرماه الله بعبد الرحمن ، فما زال به حتى راجع طاعة بني أُميـة . ثم تغلب عبد الرحمن على أبنائه من بعده : سليمان وجعفر وحفص أبناء عمر بن حفصون . بعدما تكرر من نكثهم ورجوعهم . فانتهز امر بني حفصون بعد ثورات دامت خمساً واربعين سنة من ٢٧٠ — ٣١٥ .

ولم يشغله قتال الثوار ، عن الاسبان والفاطميين . فكانت ايامه كلها جهداً وعناءً بما لقي من عنت الخوارج ، وتمرد العصاة ، وطمع ملوك الأطراف من المسلمين ، وقتـال امراء النصارى في استوريا ، ونوارة ، وملكي [لاون] اوردنيو الثاني ، ورامير [ردمير] الثاني ، ومحاربة الفاطميين في إفريقية بعد ظفرهم بالادارسة ، وايغالُ جنوده الى السودان المصري . ومع هذا فقد خرج من معظم تلك الحروب ظافراً . فدوخ البلاد ، واخمد الفتن . وظفر بالمنتقضين عليه ، لم يراع منهم كبيراً ولا صغيراً ، قريباً كان او بعيـداً ، قتل اخاه القاضي بن محمد ، وابن عم ابيه محمد بن عبد الجبار ، عند ما آنس منهما نية الانتقاض عليه ، بل قتل ابنه عبد الله بن عبد الرحمن لمثل ذلك .

فاستقامت له الاندلس بعد سبع وعشرين سنة ، قضاها في قتال كان يشهد اكثره بنفسه ، الى ان كان عام الخندق ، في آخر الربع الاول من القرن الرابع ، يوم اوقع رامير ملك لاون واشتورش بالمسلمين فقتل منهم خمسين الفاً . فقعد عبد الرحمن بعد ذلك عن الغزو بنفسه ، وصار يردد الصوائف في كل عام . فبلغ من بلاد الفرنجة مالم يبلغه غيره . وراسله ملوك النصارى ، واوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية مهادنة له ، وتزلفاً الى مرضاته . وجلس للوفود مجلساً عاماً كان من الايام المشهود في تاريخ العرب ، ظهرت فيه الخلافة الاندلسية في مظهر من الابهة والعظمة والفخامة ، ليس بعده غاية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعرضت الجيوش ، وأنشدت الاشعار ، وألقيت الخطب ، فشهدت الوفود مشهداً ترك في نفسها اثراً كبيراً من قوة الدولة ونظامها .

واتاه الملوك المتاخمون لبلاد المسلمين في الاندلس . ومما الى ملك العدوة فاخذ سبتة ، ونقل الفرضة من ايدي اهلها ، واطاعه بنو ادريس امراء العدوة ، وملوك زناتة والبربر . وفتح طليطلة ، وقرمونة [1] ، واشبيلية ، وكثيراً من البلاد العاصية والبلاد المستقلة .

ومما يعد له في الدهاء ، ومكارم الاخلاق ، ويجمل بالامراء من اصحاب الوطنية الحق ان يقتدوا به ، ما كان منه نحو اردون (اردونيو) ملك لاون [2] وقد غزا بجيوشه ماردة ،

(١) قرمونية او قرمونة وهو الاكثر ، كورة بالاندلس يتصل عملها باعمال اشبيلية غربي قرطبة وبينهما اثنان وعشرون فرسخاً ، وشرقي اشبيلية وبينهما سبعة فراسخ . قديمة البنيان . عصت على عبدالرحمن بن محمد الأموي فنزل عليها بجنوده حتى افتتحها وخربها ثم عادت الى بعض ما كانت عليه .

قال ابن صارة الاندلسي في بعض ملوك العرب — واسمه الناصر — وكان قد فتح قرمونة :

اظلّ على قرمونة متحليـاً مع الصبح حتى قلت كانا على وعد
فارملها بالسيف ثم اعارها من النار اثواب الحداد على النقد
فياحسن ذاك السيف في راحة العلى ويا برد تلك النار في كبد المجد

(٢) أردنيو (Ordogno) اسم عدة ملوك من ملوك استوريا س ولاون ، اشهرهم اردنيو الثاني ملك من سنة ٩١٢—٩٢٣ . هجر اوثيادو وأقام بلاون واخذ طليرة وخربها وحارب عبدالرحمن الناصر سنة ٩١٦ ومضى لمساعدة نوارة وانكسر في واقعة فال جنكويرا سنة ٩٢٢ . وقال ابن خلدون : وفي اول المئة الرابعة للهجرة ملك على الجلالقة اردون ابن رذمير بن برمند بن قريوله بن اذفونش بن بيطر وخرج سنة ٣٠٢ الى الثغر الجوفي لاول ولاية الناصر وعاث في جهات ماردة واخذ حصن الحنش وبعث الناصر وزيره احمد ابن عبدة في العساكر الى بلاده فدوّخها ثم أغزاه ثانية ٣٠٥ فنكث ؟ وقتل ؟ ثم اغزى مدراً مولاه فدوّخ ورجع ثم غزا بنفسه بلاد جليقية ٣٠٨ واستنصر اردون بشانجة بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فنهبها وعاث فيها ، واخذ حصن الحنش وانتهى الخبر الى عبدالرحمن وهو مشغول بمحاربة الفاطميين بافريقية ، فلم يعقه ذلك ، ولا منعه ان ماردة كانت ثائرة عليه ، من ان يوجه الى نصرتها وزيره احمد ابن ابي عبيدة[1] فيهزم الاسبان ، ويغنم منهم غنائم كبيرة ويسبي فيهم سبياً كثيراً .

استألف الناصر جيرانه بعهود عقدها بينه وبينهم ، منهم اردن (اردونيو) الثاني ملك ليون و (شانجه) سانكو ملك نافار البشكنس .

كان عبد الرحمن من الملوك الذين لايجود الزمن بامثالهم الا قليلاً . ما نقول هذا عصبية قومية بل حقيقة تاريخية ، اعترف بها مؤرخو الغرب فأوسعوا لاسم عبد الرحمن مجالاً في كبيرات معلماتهم على قلة ما يفعلون ذلك برجالنا .

وعبد الرحمن الناصر كان عظيماً في كل شيء . في تدبيره وفي همته ، وفي حربه وفي بأسه ، وفي فتكه وفي عفوه ، وهو ما اشرنا اليه . وفي مناصرته للعلم ، ومعاضدته للعمران ، على ما نذكره في موضعه . واذا كان يعد عليه انه قتل ابن عم ابيه ، وقتل اخاه ، بل قتل ابنه ، فهذا امر لا يعنينا كثيراً لانه من الامور الخاصة ، وهو أعلق من حيث العواطف بنزعة الرحمة والشفقة ، منه بباب الحزم والسياسة ، بل قد يكون الحزم والسياسة في ما فعل ، على هول ما فعل وفظاعته .

غير ان ما نعده عليه ، ونؤاخذه به ، مما يرجع الى السياسة العامة ، ويتعلق بحياتنا القومية ، هو انه أضعف العصبية العربية ، بتقديمه الموالي على العرب ، وتأميرهم عليهم ، على نحو مافعل العباسيون في بغداد . فكان ذلك زائداً في تفكيك عرى الامة وتخاذلها ، وفي بعد الشقة بين ابنائها ، وقيام بعضهم على بعض ، وفي ضياع الرهبة من القلوب ، امر اذا حال سلطانه دون ظهوره في ايامه ، فقد كان ضرره بعد ذلك خطيراً .

غرسية ملك البسكنس (البسكة) وصاحب بمبلونة فهزمهم الناصر ووطيء بلادهم وخربها وفتح حصونهم وهدمها وردد الغزو بعد ذلك في بلد غرسية الى ان هلك اردون وولي بعده ابنه غرسية سنة ٣١٣ . (١) وفي دائرة المعارف الجزء الثالث ص ٤٠ وفي ما مر معنا من كلام ابن خلدون احمد بن عبده .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفاته وولايته : توفي عبد الرحمن سنة ٣٥٠ (٩٦١) فكانت ولايته خمسين سنة قمرية .

الحكم : انتهى اليه الامر بعد ابيه عبد الرحمن الناصر ، فمهد الامور على السنة التي كان استنها ابوه ، من عقد المعاهدات مع جيرانه ملوك الاسبان . ذلك بعد ان حارب بعضهم ، ونكث البعض الآخر عهده الذي كان عقده مع ابيه . فظهر عليهم ، ودفع عاديتهم ، واوغل في بلادهم ، فاحتل بعضها . وشرط عليهم في المعاهدات التي عقدها معهم شروطاً كانت في مصلحة المسلمين ، فنزلوا على حكمه ، وقبلوا بها وأخلدوا الى السكينة . فأمن جانبهم .

وظهر النورمان او المجوس على لغة العرب في مياه اشبونة ، وعاث قرصانهم فساداً في الثغور ، فقاتلهم الاهلون الى ان وصل الاسطول الذي أرسله الحكم ففروا وأخلوا البلاد . ثم التفت الى المغرب الأقصى وكان صاحبه الحسن بن كنون — آخر ملوك الادارسة — قد نكث عهد قومه مع الناصر وحالف العبيديين ، فلما عاد جوهر قائد العبيديين من افريقية الى مصر ، عاد الحسن فخالف الحكم . ثم ثار بلكين بن زيري امير صنهاجة وزحف الى المغرب فدخل الحسن في طاعته ونبذ طاعة الأمويين مرة ثانية . فلما رجع بلكين الى افريقية ارسل الحكم الى الحسن جيشاً ضخماً عبر البحر من الجزيرة الخضراء الى سبتة ، فتغلب على الحسن وجيء به الى قرطبة . وسار الجيش الى فاس فامتلكها وأضافها الى بني أمية وقطع دعوة العلويين من تلك البلاد .

اخلاق الحكم : كان الحكم عالماً عارفاً بالتاريخ والشريعة ، حتى قيل عنه انه اعلم بني أمية . جلب له ابوه مشايخ العلماء وجلتهم في الشرق والغرب ، فتخرج بهم وكانت له تعليقات بخطه على كثير من كتبه وينسب اليه شعر رائق :

وفاته وخلافته : توفي الحكم ثاني صفر سنة ٣٦٦ فكانت خلافته ست عشرة سنة .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هشام المؤيد بالله : ولي بعد ابيه الحكم، وسنه عشرة اعوام وأشهر . فكان له من الخلافة اسمها ولقبها ، والامر كله لابي عامر محمد بن عبدالله بن ابي عامر، مؤسس الحجابة العامرية[1] بل دولة بني عامر كما كانوا يسمونها .

دولة بني عامر : مبدأ امر ابي عامر: انه ورد شاباً من طُرْطُش (تورطوسا) من الجزيرة الخضراء الى قرطبة . فطلب العلم والادب وسمع الحديث وتميز في ذلك . وكانت له همة يحدث بها نفسه بادراك معالي الامور ، ولم تزل حاله تعلو منذ ورد قرطبة ؛ الى ان تعلق بوكالة السيدة صبح[2] ام هشام المؤيد بن الحكم المستنصر والنظر في اموالها وضياعها ، فزاد امره في الترقي معها ، الى ان رغبت الى الخليفة في توليته القضاء فولاه ، فظهرت نجابته ، فترقى الى ولاية الزكاة والمواريث باشبيلية . فلما توفي الحكم ، وهشام صغير ، وخيف الاضطراب ، ضمن ابو عامر لصبح سكون الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها . وكان ابو عامر قوي النفس . وساعدته المقادير ، وأمدته المرأة بالاموال، فاستمال العساكر اليه ، وجرت أحوال علت قدمه فيها ، حتى صار صاحب التدبير ، والمتغلب على الامور . وحجب هشاماً ، وتلقب بالمنصور ، وامر بالدعاء باسمه على المنابر عقب اسم الخليفة، ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فحطهم عن منازلهم ، وقتل بعضهم ببعض . كل ذلك عن امر هشام وخطه وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم ، ومزق جموعهم ، لا مستثنياً أموياً ولا ولداً ، بدأ بالمغيرة بن عبد الرحمن الناصر اخي الحكم فقتله ليلة البيعة لهشام ، بمالأة الحاجب جعفر ، وقاتل حماه غالباً مولى الحكم فقتله . وحمل جعفراً على نكبة الصقالبة الخصيان فنكبهم وشردهم ، وكانوا ثمانمائه او يزيدون . ثم قبض على جعفر نفسه فسجنه حتى مات ، وقتل ابنه عبدالله بن ابي عامر . ومضى يقتل من يخشى منهم من بني أمية وزعماء القبائل ، يُظهر انه يفعل ذلك حماية للمؤيد وشفقة عليه . حتى افنى من

(١) لما قسم بنو أمية خطط الوزارة بالاندلس جعلوا بين الوزراء والخليفة رسولاً يتردد بينهم في المهام سموه باسم الحاجب فارتفع عن الوزراء بمباشرته للسلطان في كل وقت وعلا مجلسه عن مجالسهم وكان يحجب السلطان عن الخاصة والعامة . فأشبهت خطته رئاسة الوزارة . (٢) وهي شعرانية نافارية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يصلح منهم للولاية والرآسة ، ثم شرد باقيهم عن البلاد ، وجردهم من الأموال ، فدانت له أقطار الاندلس كلها وأمنت به ، ولم يضطرب عليه شيء منها ايام حياته لعظم هيبته ، وفرط سياسته . واستوزر جماعة من اهل العلم والأدب . ولم يزل ابو عامر طول ايام مملكته مواصلاً لغزو الروم (الاسبان) مفرطاً في ذلك لا يشغله عنه شيء . و بلغ من حبه للغزو انه ربما خرج للمصلى يوم العيد فحدثت له نية في ذلك فلا يرجع الى مقره ، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره الى الجهاد فتتبعه عساكره وتلحق به ، اولاً فاولاً . فلا يصل الى اوائل بلاد الروم الا وقد لحقه كل من أراده من العساكر . غزا في ايام مملكته نيفاً وخمسين غزوة ، وفتح فتوحاً كثيراً ، ووصل الى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله ، وملأ الاندلس غنائم وسبياً من بنات الروم واولادهم ونسائهم .

وفي ايامه تغالى الناس بالاندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلي والدور ، وذلك لرخص اثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزون بهن به مما ذكرنا . ولولا ذلك لم يتزوج احد حرة .

قال المراكشي صاحب تاريخ الاندلس الذي نقلنا عنه معظم هذا الفصل : بلغني انه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع فلم تساو اكثر من عشر بن ديناراً عامريا .

كانت وفاة ابي عامر المنصور بافصى ثغور المسلمين بموضع يعرف بمدينة سالم سنة ٣٩٣ بعد ان ملأ الاندلس بحديث انتصاراته وفتوحاته ، في الجنوب والشمال ، واغنى البلاد بالغنائم والاموال .

وابو عامر من اجل ملوك الاسلام عظمة وشأناً ، واكبرهم فتحاً واعظمهم سلطاناً ، استوثق له ملك المغرب وملك العدوتين ، وكان من امكر رجال السياسة واشدهم استبداداً على عدل في الرعية ، ونصفة في الاحكام . وقد طالت امارته نحواً من سبع وعشرين سنة . وخلفه ولده عبد الملك المظفر ابو مروان وكان مقتفياً اثر ابيه في الجهاد تحرش ملوك الاسبان بحدود المسلمين لاول ولايته ، فأوقع بهم بما مكّن من هيبته في قلوبهم ، فاخلدوا الى السلم . فكانت ايام المظفر على قصرها اعياداً في الخصب والامان . توفي سنة ٣٩٨ ، قيل سموه سمه اخوه عبد الرحمن فكانت ولايته سبع سنين . فخلفه اخوه عبد الرحمن ، لذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتلقب بالناصر لدين الله . ولم يقف به الامر عند الحجر على الخليفة ، والاستبداد بالسلطان ، كما فعل ابوه ثم اخوه ، بل حاول ان يستأثر بما بقي من رسوم الخلافة ومظاهرها . فاكره هشاماً ان يعهد اليه في الخلافة من بعده ، واستكتبه عهداً موثقاً بانه لما « لم يجد عنه مذهباً ، ولا الى غيره معدلا ، خرج اليه من تدبير الامور في حياته ، وفوض اليه الخلافة بعد وفاته ، طائعاً مختاراً مجتهداً ، وامضى امير المؤمنين هذا واجازه وانفذه ، ولم يشترط فيه ثُنْيا ولا خيارا ، واعطى على الوفاء به ، في سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه (صلى) وذمة نفسه ، ان لا يبدل ولا يغير ولا يحول ، واشهد على ذلك الله والملائكة وكفى بالله شهيداً . واشهد من اوقع اسمه في هذا وهو جائز الامر ماض في القول والفعل ، بمحضر من ولي عهده المأمون ابي المظفر بن المنصور وفقه الله تعالى وقيد له ما قلده ، والزمه نفسه ما في الذمة . وذلك في شهر ربيع الاول سنة ثماني وتسعين وثلاثمائة . » هذا ما كتبه صاحب الحق الموروث في الخلافة الاموية الاندلسية طائعاً ... مختاراً ... ومجتهداً ! ؟ وقد علمنا الحرب وما عقبها قيمة الطواعية والاختيار والاجتهاد في ما يكتبه المستضعفون والمعميون والمرتزقة من المضابط في مثل هذه الحوائق .

عظمت هذه البيعة على الناس عامة ، وانصار الامويين خاصة ، فكانت صفقة هائلة دفع فيها ولي العهد المأمون ، ابو المظفر بن المنصور ، حياته ثمناً لها .

* * *

الفوضى وخلفاء الفتنة : وكان امراً مقدوراً ان يتفق الناس على خلع هشام المؤيد ، بعدان رأوا من حاله مارأوا ، وبعد ان أصبح ضحكة الخلفاء . فبايعوا لمحمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وذلك في ١٨ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ (١٠٠٩) .

محمد بن هشام : قام محمد هذا بقرطبة فالتف حواليه الغاضبون من قريش عامة ، والأمويين خاصة . والعرب ولاسيما اليمانية . اولئك ، لما عظم عليهم من استبداد البربر بالامر منذ ايام الناصر الى آخر دولة العامريين ، واليمنية لما ركب اكتافهم من تحكم القيسية الذي طال عليهم امده .

تلقب محمد بالمهدي ، واخذ المؤيد فحبسه ، وبلغت انباء هذه الفتنة عبد الرحمن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العامري وكان بجليقية غازياً ، فقفل راجعاً الى قرطبة ، فلما قرب منها انفض عنه جمعه ، وخذله حتى البربر : انصار الدولة العامرية ، لسوء تدبيره ، ووثب به الثائرون فاحتزوا رأسه وحملوه الى المهدي . وكان عبد الرحمن قد قتل اباه هشاماً ، فانقرضت به دولة العامر بين سنة ٣٩٩ .

واشتد المهدي على البربر انتقاماً منهم ، وتقرباً الى العرب فأبعدهم عنه ، وامر بهم ان لا يركبوا ولا يحملوا سلاحاً ، وصادرهم وثارت بهم الدهماء فانتهبت دورهم .

فأئتمر البربر بينهم بخلع المهدي ومبايعة هشام بن سليمان الناصر ، ففشا الامر ، وتغلب عليهم المهدي فأزعجهم عن قرطبة وجاء بصاحبهم هشام بن سليمان ، واخيه ابي بكر ، وغيرهما من الزعماء ، فضرب اعناقهم .

واجتمع البربر بظاهر قرطبة ، ولحق بهم سليمان بن الحكم ابن اخي هشام المقتول ، فبايعه اصحاب عمه ، ولقبوه بالمستعين . ونهض به اصحابه الى طليطلة ، واستجاشوا بصاحب قشتالة فكان الى اجابتهم — على جاري العادة — سريعاً ، أمدهم بالجند والمال ، فسار سليمان الى قرطبة في جمع من البربر والنصارى ، فانكسر المهدي بعد معركة قتل فيها من رجاله خلق كثير ، فيهم الأئمة والعلماء ، وفر من قرطبة فدخلها سليمان وذلك من شوال سنة ٣٩٩ نفسها .

فكانت خلافة محمد المهدي بضعة اشهر .

سليمان بن الحكم : ولي الامر بعد ان تغلب على المهدي :

اما المهدي فلحق بطليطلة واستجاش في نوبته بسانجة اوشانجة (سانكه الثالث ملك نوارة وقسطيلة) فأنجده . فكر المهدي راجعاً الى قرطبة فكشف عنها المستعين . ففر هذا باصحابه ودخل المهدي قرطبة وجدد البيعة لنفسه . وذلك في منتصف شوال من السنة المذكورة .

فكانت خلافة المستعين هذه ، اياماً معدودة من شهر شوال .

محمد بن هشام : فلما عادت هذه الخلافة الحائرة الى محمد المهدي مرة ثانية ، خرج في جيشه وجيش الاسبانيول — الذي أمده به صاحب قشتيلية — لقتال المستعين ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان المستعين قد لحق بشاطبة ونفرق اصحابه في البلاد يعيثون فيها فساداً . وانكسر المهدي وعاد الى قرطبة مدحوراً ولحق به المستعين فحاصرها .

هشام بن الحكم : واشتد الامر على المهدي فرأى ان يعيد هشاماً المؤيد بل المقيد ، صاحب العامريين ، وسجين المهدي نفسه ، وهو الذي كان قبل الفتن . وقام المهدي في حجابته تسكيناً للثورة ، وذلك في ذي الحجة سنة ٣٩٩ . فلم يغل ذلك من غرب الفتنة ، ولا رفع الحصار عن قرطبة . فوثب الصقالبة على المهدي صاحب الحجابة بعد الخلافة فقتلوه دفعاً للفتن . وذلك يوم الاحد السابع من ذي الحجة سنة ٤٠٠ .

وسعى المؤيد في ان يصرف اليه البربر عن المستعين ، فلم يوفق . وتعهد المستعين لالفونس الخامس ان يسلم مافتحه الحاجب المنصور من حصون قسطيلة ، ان هو أعانه على خلع المؤيد . وبلغ الخبر المؤيد فرأى ان يدخل مع المستعين ابن عم ابيه في المناقصة . فتعهد لالفونس ان ينزل له عن هذه الحصون فوراً ان هو لم ينجد المستعين . ورأى الفونس في مناقصة المؤيد صفقة اربح من صفقة المستعين ، هذا يسلم الحصون تسليماً معلقاً ، وهو يحتاج الى قتال يقاتله معه ، والمؤيد يسلمها ناجزة من غير قتال ، فرغب في الثانية عن الاولى ، وأجاب المؤيد الى طلبه ، وتسلم الحصون .

وعاد المستعين يضيق على قرطبة الحصار . ثم اقتحم الزهراء ، وما زال بقرطبة يراوحها القتال ويغاديها ، ويتأى احيانا عنها ثم يدانيها ، حتى استولى عليها بعد معارك طويلة ، وقتال اتصل الى منتصف شوال سنة ٤٠٣ . كان يكون مرة له ومرة عليه .

سليمان بن الحكم : عاد المستعين الى قرطبة في ذلك التاريخ ، فعادت الخلافة اليه . وكأن الخلافة كانت في الغرب في ذلك العهد ، موقوفة على من يملك قرطبة ، كما كانت في الشرق ، موقوفة في الغالب على من يملك الحرمين . وقبض سليمان على هشام المؤيد واخفاه ثم قتله سراً . واتى البربر اصحاب المستعين من الافاعيل في الزهراء وقرطبة ، ما قضى على شطر كبير من الحضارة والعمران ، وانزلوا انواع المعرة واصناف العذاب بالسكان ، الشيوخ والاطفال والرجال والنسوان . ونفرق البرابرة على الولايات الاندلسية يقتسمونها بينهم ، ويتحكمون فيها في الناس ، ووثب بعض العرب كل منهم في ناحية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

استولى عليها ، فكان ذلك مبدأ ملوك الطوائف .

غير ان المستعين تعوّض عن تلك الولايات الضائعة ، والسلطان المضطرب ، لقباً جديداً هو الظافر . اضافه على اسمه الكريم الى لقبه القديم ، يقوّي به ملكه الضئيل . فاصبح سليمان بن الحكم : المستعين الظافر . المستعين ! وبمن ؟ بالفونس عدو وطنه ، وبالبرابرة اعداء قومه . والظافر ! وعلى من ؟ على ابناء عمومته لحمًا ، وعلى ذوي قرابته وقومه ، دماً عصبيةً .

ولم يطل امره حتى تغلب عليه ابن حمود العلوي وقتله بيده في المحرم من سنة ٤٠٧ هـ ١٠١٦ م .

(لها بقية) عارف النكدي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net